المحاضرة الرابعة: ظروف إلحاق الدول المغاربية (الجزائر، طرابلس، تونس) بالدولة العثمانية.

1- أصل الإخوة بربروسة:

من بين الجزر التي فتحها الأتراك في حملتهم على جزر بحر إيجة مدينة مدلي[1] سنة 1457، ولكي يثبّت الأتراك أقدامهم في تلك المنطقة أمر السلطان "محمد الفاتح"، طائفة من جنده بأن تستقر نهائيا في الجزيرة[2] حيث تزوّج الشاب يعقوب الروملي الذي كان فارسا سباهيا [3] كاتالينا أحد بنات المدينة وهي ابنة قس أرثودوكسي يوناني[2] فأنجبت له أربعة اطفال هم إسحاق وعروج وخير الدين وإلياس، وهو ما ذهب إليه ماتاي والأب دان[36] في حين يرى سقات سوجك وغيره من المؤرخين الأتراك الحاليين المختصين في الدراسات العثمانية إلى ترجيح كون الإخوة بربروسة من أصل إسلامي[7]، أما محمد صلابي فيقول: "يرجع أصل الأخوين المجاهدين إلى الأتراك المسلمين".[8]

---

[1] تذكر غزوات أن جزيرة ميدلي فتحت سنة 1462، أما بعض المصادر فتؤكد أن فتحها كان سنة 1457.

[2] مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مرجع سابق، ص2.

[3] السباهية : هي مرادف للصبايحية، وهي فرقة الفرسان التي كانت تجندها الدولة العثمانية مقابل امتيازات معينة.

[12] Fray Diego De Haedo, Histoire des Rois d'Alger, Traduire par H.D. De Grammont, Adolphe Jordan, Alger,1881, p3.

[6] A.Mattei, protestation contre détracteur du système administratif suivi actuellement en Algérie, Paris, E. DenniLibraire éditeur, 1869, p23

[13] R.P.Pierre Dan, Histoire de barbarie et de ses corsaires des royaume, et des villes d'Alger, de Tunis, de Salé, et de Tripoli,Paris,chez pierre Rocolet, Imprimeur & Libraire ordinaire du Roi, seconde édition, 1646,p19.

[7] المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني "القرصنة ،الواقع ،الأساطير"، ج2، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص70.

[8] علي محمد محمد صلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، 1999م، ص206.

زاول والدهم مهنة الفخار[4]، وازدهرت صناعة يعقوب الخزفية فرأى أن يتوسع بشراء سفينة تحمل الأواني التي يصنعها إلى الجزر القريبة من جزيرة ميدلي، وأسند مهمة قيادتها إلى اثنين من أبنائه، هما عروج والياس وكلف الخضر وإسحاق لصناعة الخزف، وقد تعمد يعقوب هذا التقسيم تنفيذا لحكمة تعلمها في الجيش والقائلة بوجوب الجمع بين الاندفاع والتروي، ولما كان كل من خضر وعروج قد اشتهروا بالاندفاع فقد فصل بينهما[15].

ولكن وفي إحدى الرحلات التجارية لعروج وإلياس، تعرضا لهجوم من قبل فرسان رودس، وكان هؤلاء الفرسان يمارسون أعمال السلب والنهب وغدوا قطاعا للطرق البحرية، في وقت لم يكن هناك قانون ينظم أعمال البحار، وكان القوي يفرض القانون الذي يريده ويرغبه على الضعيف[17]، وبهذا أصبح عبدا لإثنين من عظماء المدينة. [20]

وقد استطاع عروج أثناء سجنه من أن يتقن لغة الفرنك Franque، وأن يستوعبها بسهولة، كما استطاع أن يجذب كبار الجزيرة بطيبته، والتقى بأحد تجار الجزيرة الذي وعده بالمساعدة [22] غير أن كل محاولات تحريره قد باءت بالفشل، ولهذا لم يبقى أمام عروج سوى حل واحد ألا وهو الفرار أثناء اشتغاله مجدفا على السفن الرودسية.

---

[14] H. D. de Grammont, op.cit, p20.

[15] مبارك الميلي،ج3، مرجع سابق،ص32.

[17] عزيز سامح ألتر، الأتراك في إفريقيا الشمالية، تر. محمد علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م، ص28.

[20] مبارك الميلي، ج3، مرجع سابق، ص33.

[22] S.Rang , F.Denis,Fondation de la régence d'Alger Histoire de Barbaresque,Tome1paris,, J. Ange éditeur, 1837, P4-5.

وفعلا استطاع عروج الفرار في النهاية مستغلا إحدى العواصف التي اعترضت سفينتهم، أثناء نقلها بعثه من الأسرى المكلفين بتجديف سفينة كانت تقل جمعا من الأسرى المسلمين افتداهم السلطان قرقود أخوا سليم الاول[24].

توجه عروج إلى مدينة أنضاليا، حيث تعرف على رجل اسمه "علي رايس"، فجعله رفيقا له وذهب معه إلى مصر حيث أسندت له مهمة قيادة مراكب بحرية، مخصصة لنقل الخشب اللاّزم لصنع السفن ، لكنه اصطدم بقراصنة جنوة فعاد إلى أضالية[27].

وبعد هذا جاء عروج إلى مانيسا واجتمع بالسلطان قرقود وتسلم منه سفينتين حربتين كهدية، أين كان قرقود يفكر في تأسيس أسطول القراصنة (الصاعقة البحريين)، وعندما مثل عروج بين يدي السلطان قرقود ليشكره، تساءل عن سبب عدم ذهابه إلى غرب البحر الأبيض، وأخبره بان المسيحيين هناك يستولون على المسلمين، وأوصاه بالذهاب ومشاهدة الوضع شخصيا، وأن يسير في أثر كمال رئيس، فأذعن عروج للأوامر وذهب بسفينتين إلى مياه إيطاليا الجنوبية، وضرب السفن الإسبانية والبندقية وعاد إلى خليج أزمير[28].

1- الإخوة بربروسة في الجزائر وتونس:

كان خير الدين يتحين الفرصة المواتية لهجرة صناعة الفخار، والارتماء في أحضان المغامرة، ووجد هذه الفرصة عندما اندلعت نار الحرب بين السلطان سليم

---

[24]مبارك الميلي، ج3، مرجع سابق، ص33.

[27]المرجع نفسه،ص34.

[28]يلماز أوزوتونا،تاريخ الدولة العثمانية، ج1، مرجع سابق، ص243.

الأول وأخيه قرقود خان... أين فر| نحو سواحل المغرب العربي أين التقى هناك بأخيه في جزيرة جربه بتونس[31].

أما عن تاريخ وصول الأخوين فنجد أن أغلب المراجع التركية، تذكر أنهما وصلا سواحل المغرب العربي سنة 1512م والبعض الأخر يذكر سنة 1513، وهي نفسها سنة استدباب السلطة لسليم الأول بعد إعدامه لشقيقه قرقود، حيث أن الأخوين كانا مواليين للأمير الأخير، ما دفعهما للفرار نحو سواحل المغرب خوفا على حياتهما، أما المصادر الأوربية فتذكر أن وصول الأخوين إلى سواحل تونس يرجع لسنة 1504م وأما ديغرامون فيؤكد أن قدموهما يعود إلى سنة 1510م، ولكن عند تحليلنا للأوضاع نجد أنه من غير المنطقي أن يكون وصولهما سنة 1504م، ويقوما بأول محاولة لفتح بجاية سنة 1512، ولهذا فمن المحتمل أن يكون وصولهما إلى سواحل المغرب الإسلامي بين سنة بين 1510-1512.

اتفق الأخوان بعدها مع سلطان تونس[35] الحفصي على دفع العشر «dàme»مقابل السماح لهم بدخول ميناء المملكة وشراء ما يلزم من مؤن لممارسة نشاطهما[36]، ويذكر خير الدين أنهما اتفقا مع السلطان الحفصي على دفع الثمن من الغنائم التي يتحصلون عليها من أعمالهما البحرية مقابل أن يبيعا غنائمهما على الأسواق التونسية ومكان يجعلاه ملاذا لسفنهما ومركزا للإقامة[37].

---

[31]مبارك الميلي، ج3، مرجع سابق، ص34.

[35] **سلطان تونس:** مولاي محمد الحفصي.

[36] Fray Diego De haedo**, op.cit,** p5.

[37]خير الدين، مصدر سابق، ص46.

فوافق بأن منحهما جزيرة جربه، التي جعلا منها قلعة حصينة وقاعدة لانطلاق حملاتهما البحرية التي ما فتئوا يمارسونها[38]. وبعد أيام قليلة من تحالفه مع ملك تونس، تمكن عروج من أسر غليارتين تعودان للبابا جوليووس الثاني[39].

لقد أخذت هذه الحادثة صدى واسعا بعد أن أصبح البابا نفسه مهددا من قبل الرياس الأتراك، ومنذ اللّحظة ازدادت شعبية الأخوين لدى الأوساط الشعبية المسلمة في شمال إفريقيا، حيث يقول دي غرامون: خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر، تحدثت شعوب الساحل المتوسط الإخوة القراصنة الذين أصبحوا مشهورين جدا[41]، ويقول ماتاي في وصفه للأخوين: لقد بدؤوا القرصنة ضد كل الجنوب الأوربي، فنهبوا السواحل وأسروا السفن واختطفوا الرجال والنساء والأطفال، وكدسوا ثروة كبيرة حيث كانت بضع سنوات كافية ليصبحوا أكبر إرهاب ضد أوربا الساحلية[42].

إن هذه الأوصاف كانت كافية لترسم نموذجا مثاليا عن المنقذ المحتمل لمناطق شمال إفريقيا، فقد كان سكان هذه المناطق يسمعون عن أخبارهم ويتناقلونها بينهم، وفي المقابل كانت الجماهير الأوربية تكون صورة سيئة عما يسمونهم "قراصنة الساحل البربري".

وقد بالغ مخطوط الغزوات في تضخيم مآثرهم البحرية، وسارت على منوالها المصادر الأوربية في القرن السادس عشر، التي ساهمت كثيرا في صنع أسطورتهم، لكن في هذا المجال تعتبر الأساطير نفسها عنصرا مهما لا يجوز إهماله، ذلك أن

---

[38]ياتسيك ماخوفسكي، تاريخ القرصنة في العالم، مرجع سابق، ص88.

[39]Fray Diego De Haedo, op.cit, p6.

[41] H.d.De Grammont, op.cit, p20.

[42] A.Mattei, op.cit, p23.

المجد الذي فتح لهم طريق الحكم هو نتيجة مشتركة لمآثرهم الحقيقية، وللأصداء المضخمة التي راجت بين الجماهير[43].

وقد مكنت أعمال عروج البحرية من أن يكون لديه أسطولا بلغ عدده سنة 1509 حوالي 8 سفن، بالإضافة إلى سفن أخرى كان يقودها قراصنة آخرون، جاءوا بدورهم إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط وانظموا اليه[44].

ولعل أول اتصال لعروج بالجزائر كان سنة 1512، حين طلب منه أهالي بجاية مساعدتهم لطرد الأسبان واستعادة مدينتهم المحتلة منذ عامين، هذه الدعوة سوف تحدث منعرجا كبيرا في التطور السياسي للجزائر والمغرب[45]، حيث استنجد بهما حاكم قسنطينة أبا بكر لطرد الجيش الاسباني المحتل«[5]. ، ويقول دي غرامون : وفعلا لبى الأخوين عروج وخير الدين النداء وحاصرا المدينة عام 1512، وكان بحوزتهم 12 باخرة مزودة بالمدفعية وحوالي ألف تركي. [46]

لكن عروج أصيب في يده بقذيفة من المدفعية[50]، فأعطى خير الدين أوامره برفع الحصار عن المدينة، وأرسل جمعا من رجاله لحمل عروج إلى تونس والذين أتوا به فاقدا للوعي إلى هناك.[52] حيث بترت يده.[54]

---

[43]المنور مروش، مرجع سابق، ص70.

[44]صالح عباد، مرجع سابق، ص44.

[45]نفس المرجع والصفحة.

[49] Ernest mercier, op.cit, p427.

[46]H.d.DEGrammont, op.cit, p21.

[50]J.J.E.Ray, Histoire de l'Algérie (depuis les temps les plus anciens jusqu'à nous jours), tours,Ad Maure Cie,1859 , p101.

[52]مبارك الميلي، ج3، مرجع سابق، ص36.

[54]خير الدين، مصدر سابق، ص53.

وفي سنة 1514 تعافى عروج من إصابته وقام رفقة خير بإعادة تنظيم أنفسهم من أجل السيطرة على جيجل التي كان يحكمها الجنويين وعادوا مع المسلمين وسكان القبائل الريفية، وفي أقل من يوم سلّم حكامها المكان.[56]

وهناك اختلاف إذا ما كان الهجوم الثاني على بجاية تم قبل أو بعد الاستيلاء على جيجل، وهنا يذكر لامي : لقد كانت المحاولة الثانية على بجاية فاشلة كذلك وبهذا سيحولان اهتمامهما نحو الشرق ويتوقفان عند جيجل[57] ، أما صالح عباد فيؤكد بقوله: أما نحن فنصل إلى الرواية الثانية التي تقول أن جيجل أصبحت بيد عروج قبل المحاولة الثانية في بجاية.

ويمكنني أن أرجح الرواية الثانية، وهذا لأن خير الدين في مذكراته يذكر أنه بعد محاولته على بجاية عاد إلى جيجل، ومن المحتمل أن يكون الأخوين قد دخلا جيجل وجعلا منها قاعدة لهجماتهم بجاية.

كان الهجوم على جيجل برا وبحرا، فبعد قصف المدينة من البحر، أنزل عروج قواته البحرية إلى البر أين التقى بالقوات التي يقودها أخوه خير الدين وأحمد بن القاضي، أين تمكنوا من السيطرة على المدينة بكل| سهولة، وغنموا منها الكثير حيث بلغ عدد الأسرى حوالي600 أسير[58].

وما إن فرغوا من جيجل حتى وجها قواتهم نحو بجاية يأملان السيطرة عليها، رفقة الزعيم أحمد بن القاضي الذي كان على رأس 20.000 ألف من البربر[59]، غير

---

[56] J.J.E.ray,op.cit, p102.

[57] Lamé Fleuvry, Histoire de l'Algérie racontée à la jeunesse, Paris,A.Allouard libraire, 1848, p125.

[58]صالح عباد، مرجع سابق، ص45.

[59]المنور مروش، مرجع سابق، ص87.

أن هاته الحملة فشلت مثل سابقتها، وذلك لتخلي السلطان الحفصي في تونس عنهما، بعد أن طلب عروج الدعم منه لنفاذ الذخيرة، وربما يعود تماطل هذا السلطان إلى تخوفه من الأخوين وما سينجر عنه وقوع بجاية في أيديهما، إضافة إلى عودة القبائل الريفية لزراعة الحقول بعد أن استيأست من الحصار الذي دام 3 أشهر.

وهكذا انسحب الأخوين في نهاية الأمر إلى جيجل التي اتخذا منها قاعدة لعملياتهما البحرية[61]، لتصبح المدينة الفقيرة غنية وعظيمة بسبب الغنائم التي اكتضت بها[62].

لقد كانت الرسائل تأتي تبعا للأخوين لأجل تحرير مدينة الجزائر العاصمة، حيث يقول خير الدين: »ندما كنت مع أخي في مدينة جيجل وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية، وكان أهمها وفد الجزائر التي كانت تمثل مركز البلاد، وكان الأهالي يشكون ظلم الأسبان ويرجون تدخلنا لإنقاذهم[67].

خرج عروج في خمسمائة بحار إلى مدينة الجزائر تاركا وراءه خير الدين على جيجل في جانفي سنة 1516، هي الفترة التي تغير فيها الحكم في اسبانيا بوفاة الملك الكاثوليكي فرديناند، الذي خلفه حاكم شاب سيعرف فيما بعد بشارلكان.[68] ويؤكد لوجيي دوطاسي أن جيش البحرية تكون من ثمانية عشر غليارة وثلاثين سفينة،في حين قام عروج بالسير برا مع الأتراك والأندلسيين[71].

---

[61] Lamé Fleuvry, op.cit, p 126.

[62] Fray Diego de Haedo, Topographie et Histoire générale d'Alger, Traduire par Mounreaut,Berbrugger1870, p20.

[67]خير الدين، مصدر سابق، ص 74.

[68] Lamé Fleuvry, op.cit, 126.

[71] Laugier De Tassy, Histoire de Royaume d'Alger Avec l'État présent de son gouvernement, de ses forces de terre et de mer & de ses Revenus, Police, Justice Politique & commerce, Amesterdam,Henri du Sauzet, 1837, p10.

فاحتل مدينة شرشال وترك فيها حامية لحراستها، ومن ثم عاد إلى مدينة الجزائر[72]. استقبل عروج في مدينة الجزائر بحفاوة بالغة، وأسكنه سالم التومي في قصره، حيث بدأ من هناك في قصف قلعة البينيون ، إلا أنه وبعد عشرين يوما من القصف لم يتمكن من تخريب قلعة البينيون التي تحصن بها الإسبان بسب ضعف مدفعيته، فعبر الناس عن خيبة أملهم فيه، كما عبر عن ذلك سالم التومي الذي وجد صفه يتدعم فلجأ عروج إلى اغتياله، حسب المؤرخ جوليان فإن مؤامرة حيكت بين الثعالبة والأسبان وأهل الجزائر للتخلص من عروج وقراصنته ففرض عروج سيطرته مدعوما بالأتراك وأهالي جيجل[74].

وهكذا ساء موقف عروج، وبدأت صورته المثاليه التي تغنت بها الساكنة تتراجع تدريجيا، خاصة مع عبث الجنود الأتراك في المدينة #وفسادهم أين هاجموا على الأرباض المحيطة بها، مما ضاعف سخط السكان ضد عروج، ففكروا في الاستنجاد بالإسبان عن طريق حاكم معقل الجزيرة المقابلة لمدينة الجزائر، الذي الحين أرسل وفدا إلى إسبانيا يستنجدها ضد عروج، وأيده كل من شيخ تنس وحاكم وهران، وفي هذه الأثناء كان عروج يوالي قصف معقل الجزيرة بالمدفعية لكن من غير أن يجبره على الاستسلام لأن المعقل ورغم انقطاع التموين عنه من مدينة الجزائر، إلا أنه كان يتزود من جزر البليار[75]حيث رأى عروج في استعادة قلعة البينيون تعزيزا لصفه[76].

---

[72]عزيز سامح ألتر، مرجع سابق، ص ص50-51.

[74]صالح عباد، مرجع سابق، ص47.

[75]مبارك الميلي، ج3، مرجع سابق، ص46.

[76] Fray Diego de Haedo, *Topographie et Histoire…*, op.cit, p21.

في خريف 1516، قرر الكاردينال كسيميناس إرسال قوة بحرية مكونة من ثلاثين سفينة، ومن ثلاثة آلاف جندي أو أكثر، تحت قيادة دييغوا دو فيرا، الأسطول رسا في الجزائر، في 30 سبتمبر 1516م،بالقرب من الشرقية قليلا، وتم الإنزال في اليوم الموالي قرب واد مغاسل، حيث أنه ورغم نصائح حاكم البينيون نيكول دوكانت، قام الجنرال بالهجوم بتهور دون أي تدبر[79].

وبعد عدّة اشتباكات أصبح الوضع سيئا جدا حيث كانت السفن الاسبانية في خطر، ولهذا قرر دييغو دوفيرا الإنزال، فخرج عروج للقائه مستغلا ارتباك وسوء تنظيم الاسبان، فأثخن فيهم القتل[80]، وذلك رغم الدعم الذي أرسله قائد قلعة البينيون حسب دي غرامون[84].

حاول عرب متيجة الرد على عروج وانضموا إلى حميد العبد ملك تنس، حيث تقدّموا نحو الجزائر العاصمة بجيش مكون من 8000 آلاف جندي[87]، فاستدعى عروج خير الدين من دلس وعهد إليه حكم المدينة في غيابه وأخذ معه ما يقارب العشرين من الأعيان والوجهاء كرهائن خوفا من التمرد[7]، وخرج لملاقاة الأعداء ب 1500 تركي فقط[88] .

---

[79] H.D.de Grammont, op.cit, p23.

[80] Ibid.

[84] H.d.DeGrammont, op.cit, p24

[87] Lamé Fleuvry, op.cit, p126.

[7]عبد الحميد بن أسنهوا، دخول الأتراك العثمانيون إلى الجزائر, المطبعة الشعبية, الجزائر, د.ت، ص 76.

[88]Lamé Fleuvry, op.cit, p126.

فتمكن من هزيمة حميد العيد الذي فرّ إلى الجبال، ودخل عروج تنس في جوان 1517م، وهناك وصلته وفود من مدينة تلمسان تستغيث به ضد سلطانها " أبو حمو الثالث " الذي تحالف مع الأسبان، ضد سلطانهم الشرعي أبو زيان[89].

كان عروج قد استولى على المدية وملیانة، بينما استولى خير الدين على دلس ونواحيها[90]، وفي 11 محرم 923هـ/ الموافق لـ3 فيفري 1517، تمكن السلطان سليم الأول من احتلال مصر فأرسل له الريس عروج مع الريس مصلح الدين الهدايا والتحف الثمينة تبريكا له بفتح مصر، وقد عرض عليه مراسيم الطاعة، وأعلم السلطان سليم الأول بما حققه من انتصارات هو ورفاقه الأبطال فرد عليه السلطان سليم بجواب تقدير وإعجاب وتقبل عرض عروج بكل مميونية[93].

وفي تلك الأثناء حدثت قلاقل شديدة بتلمسان، حيث سجن الأمير أبو حمو ابن أخيه أبا زيان الأمير المتوفي واعترف أبو حمو بحماية الأسبان لبلده، وقدم ولاءه إلى إسبانيا وأيدته الحامية الاسبانية بوهران، شكل أعيان تلمسان وفدا أرسلوه إلى عروج يستنجدون باسم الإسلام ضد عمه أبو حمو وراسل عروج من سجنه[95]وفورا قام عروج بمراسلة أخيه خير الدين ليرسل له عن طريق البحر، عشرة مدافع صغيرة نحو ساحل تنس[96].

---

[89]عبد الحميد بن أسنهوا, مرجع سابق،ص 76.

[90]مبارك الميلي، ج3،مرجع سابق، ص46.

[93]عزيز سامح ألتر،مرجع سابق، ص ص 58_59.

[95]مبارك الميلي، ج3، مرجع سابق، ص47.

[96] Fray Diego de Haedo, Histoire des Rois..., op.cit, p27.

فتح عروج أولا قلعة القلاع أو قلعة بني راشد [5]، ويذكر دي غرامون أن عروج ترك شقيقه إسحاق قائدا على القلعة رفقة 200 جندي مسلحين بالبنادق[98]، واتجه عروج إلى تلمسان ولما بلغ نبأ سيره إلى تلمسان التجأ أبو حمو الثالث إلى فاس، ثم إلى الحامية الاسبانية بوهران بعد أن انهزمت وأخرج التلمسانيون أبا زيان من السجن ونصبوه أميرا وعندما دخل عروج تلمسان استقبله أهلها استقبال المنقذين، إلا أن الجند الأتراك أغلظوا في معاملة أهل تلمسان وراح عروج يتصرف في تلمسان تصرف الفاتحين، مما جعل أهل تلمسان يندمون على الاستنجاد به[100]. ويبدو أن أبا رأس قد تأثر للقمع الذي مارسه عروج على سكان تلمسان، فينقل دعوة ابن ملوكة عليه بالموت[101].

استقر عروج بالمشور واحتل المدينة بالقوة، الأمر الذي جعل التلمسانيين يندمون على أميرهم القديم وفي نفس اليوم قام بإغراق سبعين أميرا زيانيا[6] وقتل أميرهم أبو زيان بعد أن طلب منه هذا الأخير الرأفة في معاملة أهل تلمسان. ومن أجل كسب التأييد ضد الهجومات المحتملة، قام عروج بعقد معاهدة مع حاكم فاس، وفي نفس الوقت قام بترميم جميع الحصون الموجودة بالمدينة[103].

---

[5] مبارك الميلي، ج3، مرجع سابق، ص47.

[98] H.d.DeGrammont, quel est le lieu de la mort d'Aroudj Barberousse, Revue Africain, n22, 1877, p390.

[100] مبارك الميلي، ج3، مرجع سابق، ص49.

[101] محمد بن أحمد أبيرأس الناصر، عجائب الأسفار ولطائفالأخبار،ج1،تر. محمد غانم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005 ص50.

[6] H.d.deGrammont, op.cit, p25.

[103] Ibid.

كان أبو حموا قد سافر إلى إسبانيا مع قائد وهران الإسباني، بعد تتويج شارلكان على عرش إسبانيا خلفا للملك فرديناند، حيث عاد بعدها الاثنان رفقة حوالي عشرة آلاف جندي إلى وهران، في بداية سنة 1518م، وبفضل هذا الدعم تمكن أبو حمو من قتل إسحاق والقضاء على الحامية التي تركها عروج في قلعة بني راشد[106].

سار بعدها الجيش الإسباني نحو تلمسان، الذي تكوّن من 11.500 جندي وخمسة وثلاثين الفا من أتباع أبو حمو[107]، واستمر الجيش الاسباني يحاصر تلمسان ستة أشهر كاملة[108]، ولمّا حلّ عيد الفطر اغتنم السكان هذه الفرصة، فطلبوا من عروج أن يأذن لهم في الدخول إلى المشور لأداء صلاة العيد، فأذن لهم وما كادوا يعبرون أسوار المشوار، حتى سلوا أسلحتهم التي كانت مخفية تحت البرانيس ونزلوا في الأتراك ضربا وتقتيلا، فلم ينج إلا عروج وقليل من صحبه الذين اختفوا في معبر سري، وقرّروا الانسحاب على أمل اللّحاق بساحل البحر، أين سيجد في انتظاره هناك خير الدين[109].

واستمر عروج في اختراق خطوط الأسبان، ليعبر عين تموشنت وكان الماركيز قد علم بهروبه متأخرا، حيث قام بملاحقته والتقى الطرفان مساء اليوم الموالي بين سيدي موسي ومعبر نهر ريو دو سلادو "Rio Salado"،نجح عروج في اجتياز النهر إلى الطرف الآخر، ومن هناك أخذ في مراقبة المعركة اليائسة التي كانت مؤخرة جيشه تخوضها بهدف تغطية انسحابه، على أن التأثر البالغ بالبطولة والإخلاص اللذين أبداهما رفاقه دفعاه للإسراع عائدا من جديد، ومعه معيته ليعبر

---

[106]صالح عباد، مرجع سابق، ص48.

[107]يلماز أوزوتونا، ج2، مرجع سابق،ص ص 250_251.

[108] H.d.deGrammont, op.cit, p26.

[109]مبارك الميلي،ج3، مرجع سابق، ص50.

النهر انضم بربروسا إلى المدافعين عن رأس الجسر، وكان يدرك جيدا أن الوضع ميئوس منه، وبعد بضع ساعات إذ بالمنتصرين يكتشفون فوق أرض المعركة جثة عروج وقد تشوهت تماما[112].

وأرسل رأسه إلى اسبانيا كما أخذ الإسبان ثيابه التي كانت من قطيفة حمراء مزركشة بالذهب وسلموها إلى كنيسة القديس جيروم بقرطبة، فصنع رجال الدين هناك شعارا يسمى "شارة بربروس"[113]

ما إن توفي عروج في تلمسان، حتى أيقن خير الدين أن الحرب ضد الإسبان دون حماية قوة عظمى يعتبر مجرد حرب عصابات لا يمكن أن تؤدي الغرض، "فقام خير الدين باستشارة أهل البلد في الانضواء تحت راية الدولة العثمانية، حيث رحب أعيان المدينة وأهلها بالفكرة"[7] وهكذا ألحقت الجزائر بالدولة العثمانية بشكل نهائي سنة 1519م. ،

1-2-إلحاق تونس بالتاج العثماني:

لقد استمرت تونس سجالا بين الدولتين العثمانية والإسبانية، ففي "في سنة 1533 أستدعي خير الدين بربروسة إلى اسطنبول؛ وأوكلت له مهمة قيادة الأسطول العثماني، خاصة وأن إبراهيم باشا كان لا يزال متواجدا في المشرق. استطاع خير بكفاءته التخطيطية أن يقنع السلطان العثماني بضرورة السيطرة على تونس؛ ولهذا الغرض جلب معه رشيد الحفصي إلى قصر السلطان، أحد أفراد العائلة الحاكمة

---

[112]ياتسيك ماخوفسكي، مرجع سابق، ص95.

[113]مبارك الميلي،ج3، مرجع سابق ، ص52.

[7]عبد الرحمن الجيلالي، مرجع سابق، ص300,

التونسية، الذي كان محبوبا من قبل سكان تونس، الذين ذاقو ذرعا من ولاء حاكمهم الحالي لشارل الخامس.

وفي أوائل سنة 1534 بعدما سافر السلطان سليمان قاصدا مدينة تبريز، خرج خير الدين بمراكبه من بوغار الدردنيل، غير قاصد تونس مباشرة بل عرج في طريقه على جزيرة مالطة وبعض مباني جنوب ايطاليا لغزو مراكبها وأهلها دون احتلالها، حتى لا يعلم قصده الأصلي وهو فتح تونس[8]. ويذكر لان بول: "دخل خير الدين مضيق مسينا الذي يربط جزيرة صقلية بكلابريا، وهاجم قلعة سانت لوسيدا وأخذ منها ثمانية آلاف أسير، كما استولى على ثمانية سفن من ميناء كترارو، وهاجم سبارلينغا وأخذ منها السفن والنساء، ثم تسلل إلى قلعة الفوندي وأسر الأميرة جوليا قونزاقا *(Giulia Gonzaga)*".[9] وكانت سفنه تتكون من مائة سفينة: 35 باشتارد، 35 غاليه، و6 غليوطات و7 سفن مجدافية، و24 ألف مقاتل، و270 قاذف مدفعية.[10]

وتوقف خير الدين في الطريق بقسنطينة لإخماد ثورة تجددت فيها، ثم واصل سيره متوجها نحو عنابة، ومن هناك إلى تونس، فنزل بحلق الواد في 16 أوت 1534 ولقي جنوده بعض المقاومة في مدينة باجة أين قتل بعضهم... وبعد دخوله مدينة تونس ثارت ضده الانكشارية، بسبب تأخر دفع مستحقاتهم ولم يتمكن خير الدين من القضاء على هذه الثورة إلا بعد أن أنفق أموالا طائلة.[11]

---

[8] محمد لعروسي المطوي، السلطنة الحفصية ، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب، بيروت ، 1986، ص685.

[9] Lane-Poole Stanley, The Story of the Barbary corsairs, New York: g.p. Putnam's Sons, 1890, p85.

[10] Emrah Safa Gürkan, op.cit, p111.

[11] De Grammont. H. D, op.cit, p37-38.

هذا الإنجاز لم يدم طويلا ففي سنة 1535، وجه شارل الخامس حملة نحو تونس، لأنه كان يعلم جيدا أن عدم استعادة تونس سيشجع خير الدين على مهاجمة الممتلكات الإسبانية الأخرى بشمال إفريقيا "واستطاع الاسبان دخول تونس واستعادتها من الأتراك، وإطلاق صراح الأسرى الذين قدروا بحوالي عشرين ألف... كما كان على تونس أن تدفع اثنا عشرة ألف دوقة ذهبية سنويا، والاعتراف بالتبعية للإسبان والامتناع عن القرصنة، ومن أجل تحقيق هذه الوعود وصلت المدينة حامية إسبانية، تضاف إلى القوة التي تسيطر على الميناء الذي يعرف بحلق الوادي".[12]

وبقيت تونس تحت السيطرة الإسبانية إلى غاية سنة1570م أين تمكن علج علي من فتح تونس، والانتصار على السلطان الحفصي المدعوم من الاسبان، لكن الاسبان لم يبقوا مكتوفي الأيدي خاصة بعد الانتصار الكاسح الذي حققوه رفقة العصبة المسيحية ضد التاج العثماني سنة 1571م في معركة ليبانتو، ولهذا أرسلوا الأميرال "الدون خوان دوريتش الذي دخل المدينة دون مقاومة تذكر، ألزمت حاكمها العثماني حيدر باشا على الفرار إلى القيروان، وهكذا بسطت الاسبان يدهم على تونس كاملة في شهر أكتوبر سنة 1573م".[13]

لم يرى العثمانيون سيطرتهم على العالم الإسلامي إلاّ والمغرب العربي موحد تحت خلافة واحدة، ولهذا جهزوا حملة سنة 1574م تحت قيادة سنان باشا بهدف استرجاعها من السيطرة الاسبانية، حيث تذكر المصادر أن "ثلاثمائة سفينة عثمانية قد غادرت باتجاه تونس.

---

[12] Fleuvry Lame, Histoire de l'Algérie racontée à la jeunesse, Paris: A. Allouard libraire, 1848, 130.

[13] سحابات زهيرة، الحضور الجزائري فيإيالة طرابلس خلال العهد العثماني 1628-1830م، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2020م، ص25.

وكان فتح تونس مهما بالنسبة للسلطان العثماني حتى أنّه راسل ملك كوكو نفسه يطلب منه المساعدة في فتح تونس، جاء في المراسلة ما يلي: "إلى أمير كوكو في إيالة الجزائر، لقد سبق وأصدرنا أمرنا الشريف إليك فيما يخص مساندتك ومعاونتك لأمير أمراء الجزائر... ونظرا لاستيلاء الكفار على تونس فقد تقرر إرسال أسطول هاميوني في الربيع القادم... ولهذا وجب تأمين القدر الكافي من الذخيرة والانضمام إلى الأسطول الهاميوني...".[14]

وصل الأسطول قبالة السواحل التونسية في ربيع سنة 1574م، وعلى متنه خمسة وسبعون ألفا من الجنود بالإضافة ثلاثين ألفا من القوات الطرابلسية والتونسية والجزائرية[15].

تمكن العثمانيون من فتححلق الوادي بتاريخ الـ 24 أوت سنة 1574م رغم المحاولات الإسبانية والحفصية ، حيث لم تكفي التحصينات والجيش المكون من سبعة آلاف جندي، كما استسلمت آخر حامية إسبانية في تونس يوم الثالث سبتمبر سنة 1574م، ثم حاول "الدون خوان دي أوستريا استعادة تونس انطلاقا من نابولي وصقلية سنة 1575م إلاّ أن العواصف منعت ذلك".[16]

---

[14]سحابات زهيرة، مرجع سابق،ص28,

[15]Garcé María Antonia, Cervantes In Algiers: A Captive's Tale, Vanderbilt University Press, Nashville, 2002, p222.

[16] Garcé María Antonia, op.cit, p221.

ترك سنان باشا بعد مغادرته البلاد ديوانا يجمع مسؤولين لتسيير شؤون البلاد وخدمتها، ولكن بعد فترة ثار صغار الجند ضد رؤساء الديوان سنة 1571م بسبب جورهم وظلمهم، ومنذ تلك اللحظة بدأ أول حكم عثماني في تونس.[17]

3-طرابلس الغرب:

تذكر بعض المصادر أن احتلال طرابلس الغرب بدأ التخطيط له بعد أن أبلغ التجار الاسبان الملك فيرديناند بأن المدينة يمكنها أن تشبع رغبات الإمبراطورية الاسبانية، وذلك بقولهم: "ما رأينا بلدا أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلا عن مدافعة العدو"[18]، لكن الواقع يثبت أن الإسبان بعد أن احتلوا أغلب مناطق المغرب الأوسط بدأوا يفكرون في احتلال طرابلس الغرب، حيث يمكنهم جعلها قاعدة لهم في التوسع بمصر التي أضعفها الهوان والأزمات خاصة مع نظام حكم المماليك الذي كان آيلا للزوال.

احتل الاسبان طرابلس الغرب يوم الـ 25 جوان سنة 1510م، حيث لم يجدوا صعوبة كبيرة في احتلال المدينة، وبيع الأسرى "المسلمون في باليرمو مقابل ثلاثة وخمسة دوقات على عكس اليهود الذين اشتراهم يهود وحرّروهم".[19]

---

[17]فاطمة الزهراء آيت بلقاسم، الحكم العثماني في الجزائر دراسة مقارنة، كان التاريخية، ع37، سبتمبر 2017م، ص11.

[18]أحمد الأنصاري بك، الكنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرحان، ليبيا، ص185.

[19] مصطفى عبيد، طرابلس الغرب من الاحتلال الاسباني إلى دخول العثمانيين 1510-1551م، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، م09، ع18، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، سبتمبر 2019،326.

دخلت بعدها طرابلس تحت حكم الاسبان، رغم محاولات إعادة تحريرها من قبل الساكنة المحلية، فمثلا: قاد عرب طرابلس "هجوما على المدينة في فبراير سنة 1511م، غير أنهم فشلوا في اجتياز الأسوار".[20]

وما إن استقرت طرابلس للاسبان حتى بدأوا في تحصينها وإعادة إعمارها على أنها مدينة إسبانية، فيذكر الوزان قائل: "لقد وجدت الاسبان قد حصنوا قصر طرابلس بصور متين ومدفعية ضخمة حين زيارتي إليها سنة 1518م، وسمعت منذ وقت قريب أن أمير المدينة أخذ يعمّرها بالسكان باسم القيصر".[21]

وهكذا استمرت المدينة تحت السلطة الاسبان،رغم شكاية أهل طرابلس للباب العالي أمرهم سنة 1520م، غير أن مراد آغا مبعوث السلطان عجز عن تحريرها، وذلك للتحصينات القوية التي زود بها الاسبان المدينة.

وبعد أن تمكن العثمانيون سنة 1523م من تحرير جزيرة رودس آخر عقبة لهم في الجزء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، أين طردوامنها فرسان القديس يوحنا، ولتعويضهم عن خسارتهم فإن "الملك الاسباني منحهم طرابلس الغرب في الـ 25 جويلية سنة 1530م".[22]

---

[20] عمر محمد الباروني، الاسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، ليبيا، 1952م، ص59.

[21] الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ج2، تح. محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983،ص101.

[22] سالم جوامع، طرابلس الغرب من إنهيار الحكم الحفصي إلى الفتح العثماني (قراءة تحليلية في التطورات السياسية م منتصف القرن الـ 15 إلى منتصف القرن الـ 16م)، المجلة للجزائرية للأبحاث والدراسات، ام04، ع01، جانفي 2021م، ص215.

قام خير الدين بربروسة بفتح مدينة تاجوراء سنة 1531م، وولى عليها خير الدين كرمان، ثم وليّ عليها مراد آغا بعد وفاة كرمان سنة 1538م.[23]

ورغم قرب المسافة بين مدينة تاجوراء وطرابلس الغرب، إلاّ أن طرابلس استمرت خاضعة لفرسان القديس يوحنا إلى غاية سنة 1551م، وهي السنة التي قاد فيها درغوث باشا حملة لتحريرها.

كانت مدينة طرابلس خلال هاته الفترة تحت قيادة الحاكم "غاسبارد فاليي، وثلاثمائة وخمسين مرتزقا"[24]، حيث اقلع الجيش العثماني تحت قيادة درغوث باشا باتجاه طرابلس الغرب يوم الـ 18 جويلية سنة 1551م، بجيش قوامه 17 ألف جندي وستمائة فارس، بالإضافة إلى اشتراك كل من القادة مراد آغا وسنان باشا وبياليه باشا[25]، ويذكر سيتون كينيث أن "السفير الفرنسي لدى الباب العالي غابريا دارمون قد رافق الأسطول العثماني إلى طرابلس رفقة غاليارتين وغليوطة[26].

وصل الأسطول إلى السواحل الطرابلسية يوم الـ 04 أوت سنة 1551م، حيث قاد مراد آغا الهجوم برا في الوقت الذي استمر فيه درغوث باشا يقصف المدينة من البحر من خلال مدافع البحرية، وفي 18 أوت تمكن العثمانيون من إحداث فتحة في صور القلعة ودخلوا المدينة غانمين، بعدما أقر العثمانيون بشروط الاستسلام التي

---

[23] المرجع نفسه، ص218.

[24] BRAUDELFernand, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II: Volume 01, Univ of California Press, 1995, p920.

[25]مصطفى عبيد، مرجع سابق، ص334.

[26]Setton, Kenneth M, The Papacy and the Levant (1204–1571), Vol.03, The Sixteenth Century to the Reign of Julius 3, Philadelphia: The American Philosophical Society, 1984, p. 555.

طلبها الفرسان، وهي السماح لهم بالمغادرة دون المساس بأرواحهم وممتلكاتهم، وفعلا فإن العثمانيين وفووا بالشروط دون ان يمسوهم بسوء.[27]

وهكذا بدأت حقبة جديدة من الحكم العثماني لطرابلس، ستستمر لقرون كاملة، وذلك إلى غاية الاحتلال الإيطالي للبلاد سنة 1911م.

وفي المقابل فإن عودة الفرسان إلى مالطا شكلت نكسة كبيرة للمجتمع الاسباني والمالطي خاصة، حيث انتقد غاسبارد بشكل كبير من قبل السيد الأعظم خوان دي هوميديس إكوسكون بتهمة استسلامه دون استشارته، كما جرده من جميع الرتب والسلطات الممنوحة لشخصة، وعزله من التنظيم.[28]ويذكر بعض المؤرخين أن سقوط طرابلس كان بداية للحرب الإيطالية التي امتدت بين سنتي 1551–1559م، حيث أرسل العثمانيون مائة غليارة لمساندة الملك الفرنسي في حربه ضد الاسبان.[29]

---

[27]سالم جوامع، مرجع سابق، ص211.

[28]SUTHERLANDAlexander, Achievements of the Knights of Malta, Carey & Hart, 1846., p108.

[29] Black, Jeremy, European Warfare, 1494–1660, London, Routledge, 2002, p177.